الأستاذ والدوامة

بقلم : ابراهيم اصلان

ومر وقت طويل على استيقاظ الاستاذ من نومه . ومع ذلك ، فانه لم يكن قد انتهى من مواصلة احلامه بعد . يتقلب على الفراش ويتمرغ . ويضرب الهواء بساقيه .. ويصفق .. ويضحك . ويتحدث مشيرا بيديه .. ويتمسح .. ويحمم .

وعندما تنبه الى ان عينا «ام محمد» ترقبانه خلال فرجة الباب ، كان منهمكا فيما يشبه الرد على تحية جماهير .. غفيرة . ولم يتوقف ، بل استمر فى حركته ، مطورا اياها بشكل تدريجى الى ان انخلعت طاقية من يطرد عن وجهه شيئا .. كالذباب . وهكذا .. الى ان انتهى الامر باستكانة اعصابه وسمة الوقار والتجهم المعهودين على وجهه. ثم نادى بلا مبالاة : وبدون ان ينظر الى الباب الذى لم تكن المراة قد غادرته بعد .

ـ يا ام محمد .. ام محمد ..

ودخلت ام محمد : صباح الخير

كان ممددا على ظهره وذراعاه الهزيلتان تستريحان على بطنه الرحراحة الهائلة التى كانت تتمايل وتسمح فى كل اتجاه ، وبدون ان يحرك راسه المستدير الذى يمتد حتى عنقه بطبات سميكة . مال بعينيه الراكدتين وهو يقول : ـ ازيك .. يا ام محمد.

وتململت المراة الصامتة داخل جلبابها وهى ترد فى رزانة : ـ ازيك انت .

وتحركت الى نهاية الغرفة المستطيلة. فانقلب هو على بطنه وتمتعها فى ارتياح. ولكنها تناولت كوبا . واثناء خروجها حيل له ان نظرتها كانت تحمل شيئا من اللوم .

(ام محمد عاقلة ... كنت اظنها ستفتح الباقلاء ... لقد فتحتها بالاس .!.. كان يجب على ان امنعها .. حقا .. لماذا لم امنعها ؟... ومع ذلك .. كانت تواقة الفولا تظل مغلقة طيلة اسبوع فى انتظار ذلك اليوم .. دكتور بدهب .. لبحضر آخر ...

حالة طوارىء .. استعداد تام ... مفروض ..)

وارتفع رنين الملعقة داخل الكوب أثناء دخول أم محمد .. ونفس اللهجة الحانقة المتململة : ـ « ايه ده .. يا أم محمد .. ؟ »

قالت : ـ « دى كباية لبن .. »

تناول الكوب فى عجالة ووضعه على المنضدة بجوار الفراش . وأوشك أن يسألها شيئا عندما امتدت يدها المعروقة وهى تتول فى ارتباك وبدون أن تنظر اليه : ـ « خد .. »

قال وهو يسبح بنظراته على قسمتها الصغيرة : ـ ايه ده .. يا أم محمد ؟.»

ـ « ده .. ده .. ده سكر .. »

ـ سكر .. ليه ـ انت مش حليتى اللمون ـ يا أم محمد ؟

فمسحت وجهها المنقبض بكفها الخالى .

ـ خد بس .. دا سكر نبات ... امال ـ اصل لقيته فى الدرج .. ماهو بتاعك .. »

انهمك فى الضحك فجأة .. واخذ يتفحص كفه بسرعة .. ويتأمل أظافره .. ويبحث عن شىء بين ساقيه .

ـ هىء ـ امسارح .. هىء هىء .. الله ـ يا خبر .. ما تخليه .. هىء . ماتنسيش المكوجى .. هىء هىء.»

وتمادى ، الى ان افرق ، واستلقى مرة أخرى على ظهره ، ووضعت هى الكيس الصغير على بطنه . ولما خرجت اقلع عن ضحكه ، واخذ يرقب الباب فى حذر .

(ام محمد طيبة ـ لبمون ... وسكر نبات ... شىء مفيد فعلا للحنجرة ـ زمان .. لم اكن أفكر فى استعمال مثل هذه الاشياء .. عشرات الادوية ـ استفسارات ... معجبات .. افواج .. لم تصلنى خطابات منذ فترة طويلة .. أى والله افواج ..)

ولمعه الصمت ، وفكر فى شىء : ـ يا أم محمد .. ام محمد .. »

ودخلت .

ـ قولى لى يا أم محمد ... هو النهاردة ايه فى الايام .. »

ـ النهاردة ؟ .. الخميس ـ ما انت عارف .. »

استطرد قبل ان تنهى جملتها : ـ الخميس أ.. الله ـ دا على كده تبقى الحفلة النهاردة .. »

ـ « آه.. النهارده ان شاءالله ..»

ـ طيب ابقى روحى .. يا أم محمد .. للمكوجى ..

ـ حاضر .. انا رايحاله حالا .. حاضر ..

(ام محمد غلبانة .. ساشترى لها الطرحة البيضاء التى طالما طلبتها منى . ساشتريها اليوم .. ولكن الحفل سينتهى تأخرا ... سيكون دورى بلا شك ... بعد ان ينتهى الاخرون .. هى.. يحوم اليوم .. تذكرونى ـ كنت احدد الساعة التى ساغنى فيها . طبعا .. كنت اغنى وحدى .. ولكننا

اليوم كثيرون .. انا .. انهم لم يسألوني لانهم يعلمون انني لم اعد مشغولا .. وقتي ملكي الآن ... ديروه لي ... لا افلام .. لا رحلات .. لا مشاكل محرجين ومتحيين .. لا احاديث .. ساسدد الايجار .. لا مهنئين ..)

وانطلق وهو يجر معه ملاءة السرير .. واتجه الى الدولاب الصغير ... ونصق بجواره .. وشب على اصابع قدميه وتناول العود ... وعاد للفراش .. واخذ يضبطه .. ويضع اذنه عليه مختبرا .. بينما اصابعه تعبث بالاوتار وتعبث بالانغام . ودخلت ام محمد لاهثة

— المكوجي .. جانجيب البدلة .. والقميص .. كمان شويه ..

(ام محمد عجوز .. هي التي تبعث .. والعود .. الارث الوحيد .. كل شيء سيعود كما كان .. لقد اعددت العدة لذلك — وأخذت ضحكته عينيه عندما تذكر حال افراد الفرقة الموسيقية عندما كان يدربهم على لحنه الجديد — هيء هيء .. ذعروا .. كانوا يطوفون لجمعت .. كعظهم .. قديم ... فاتهم انني في تلك الفترة الطويلة كنت أرقب التطور الذي واكبه .. وادرس مشاعر الجماهير ... اذواقهم .. انا اعرف الآن ما يحبهم وما لا يحبهم ايضا .. سابدأ بلحن من الحاني القديمة .. ثم اعقبه بلحني الجديد ... سيرون .. المفاجأة .. هيء .. معذورون — وخيل له ان الصفحات الغنية في الايام التالية قد أصبحت ولا حديث لها الا عن ذلك التطور المدهش للفنان الكبير، واستعادته للمجد بلحن مخدوم،

ملائم لروح العصر وطبيعة الجماهير — ولكني سأحدد علاقاتي مع الناس .. الاصدقاء .. آه .. الكلاب ..

وامام المرآة ، كان يمر باصابعه متحسسا الاخاديد والقنوات التي احفرتها الايام ، متأملا الشيب وقد غزا ما تبقى من شعر رأسه ، هذه اشياء لا يلاحظها الجمهور .. هيء .. مفاجأة .. سيكونون مشغولين بما هو اهم من ذلك ... يا ام محمد ... أم محمد ... ؟

وعندما دخلت ، القت نظرة سريعة على الفراش ، ولما رأته يستحلب شيئا في فمه ، قاومت رغبتها في اظهار اهتمامها وابتعدت عنها .. واخذ يدور حول نفسه وبينما هي تتسلم في خيلاء ، كانت تفكر ، وتتحاش النظر الى بطنه المتحمة التي استأثرت بقامته القصيرة ولم تترك لساقيه الا ذلك الزر البسيط .

كانت المغنية الحسناء على خشبة المسرح .. تتلوى وتتمطى في أغنيتها .. وتحمل لكل كلمة من كلماتها .. ذبلا .. طويلا .. حارقا .. وتتساوه .. والصيحات المتشبثة تقاطعها في الحاح .. وتطلب المزيد .. والاستاذ يطل برأسه من فرجة في ستار خلفي .. ويرقب كل ذلك .. ويعرك كفيه .. ويجري بين الكواليس طالبا من افراد الفرقة — للمرة الالف — الاستعداد .. شارحا لهم الامر ، طالبا من الكورس اعادة ترديد الكلمات التي سوف يرددونها وراءه . وزاد اضطرابه . واخذ يجري ويمسح عرقه عندما ادرك من صيحات الجماهير ان المغنية قد انتهت من دورها ...

واخذ افراد الفرقة الموسيقية اماكنهم .

وارتفع صوت المذيع الداخلي ـ سيداتي .. آساتي .. سادتي .. الان .. وبعد غيبة طويلة .. يعود نجم الغناء الشرقي .. الذي طالما اطربنا .. الاستاذ ـ يصرخ وهو يقول ـ محمد الحمد معتوق ..

وتقدم الاستاذ .. بخطى ثابتة .. رافعا يده ملوحا للجماهير .. بهدوء وروية .. رامقا الصالة الكبيرة بعينين واثقتين . وتوقف امام مكبر الصوت ، وتهيأ افراد الفرقة .. وانتظروا اشارته .. ولكنه اكتشف ان سماعة المكبر اعلى من مستوى راسه ، فمد يده في حركة عفوية وجذبها الى اسفل، ولكنها لم تستجب . ولم يفصح مظهره عن اي اضطراب . ومال بجانب وجهه واخذ يعبر بعينه الى عازف ـ القانون الذي لم يفهم قصده .. فاخذ يضغط ثانية على السماعة ويجذبها بكلتا يديه. بلا جدوى .. ولما عزع عامل الاضاءة لمعالجة الامر ، تراجع هو وقد ارتسمت على وجهه المصنع بسمة امتنان عميقة.

لحظ على الفور ان موجات التصفيق كانت تتكسر في اماكن وتركد في اخرى، حتى انه تمكن بعد التفرس الشديد من تحديد تلك الاماكن التي كانت تعزب عن استحسانها . وذلك بعد ان انتهى من المقطع الذي قال في نهايته ..

« من امتى كان الندم يرجع اللي راح » ..

« وازاى حابقدر بطير اللي مالوهش جناح » ..

وبالرغم من شعوره ببعض الاستياء عندما نبه الى ان هناك اكثر من اثنين يتبادلان الاحاديث وبالرغم من ان احد المستمعين لم يعرهم ـ كما كان يحدث ـ فانه كان يعلق على تلك التالي اهمية خاصة ، ولما نبه الى انه قد اشتمل اثناء عزف الفاصل الموسيقي بين المقاطع في اشياء كان من شانها ان تخرجه من جو كلمات الاغنية وتؤثر على اهمية تعبيره عما تحمل من معان ، اخذ يطرد من راسه هذه الخواطر ، وشغلته هذه المطاردة عن اي شيء آخر . لذلك، اخذ يعيد المقطع الواحد اكثر من عشر مرات ، وفي نهاية كل مرة .. كان يتضح له انه لم يكن يدري على وجه الدقة ان كان قد قام بالاداء كما يجب .. وهل هو نسي بعض الكلمات فعلا .. أم لا . ولكنه عندما لاحظ ان موجة الملل لم تترك حتى ذلك الركن المتعاطف .. اثر الانتهاء . وصفقت بعض الايدي .

تراجع الى الخلف خطوات ، ونظر الى الجماهير المحتشدة في صمت ، ورفع حاجبيه الى اعلى ـ وخلع على وجهه ابتسامة عريضة ، واخذ يهز راسه ـ كان واضحا انه يضمر شيئا ـ ثم استدار بوجهه الى الخلف ، وفي حركة رشيقة .. اشال يده . وعلى الفور ، ارتفعت الانغام . وتقدم بهدوء .. ولم يكن قد تخلى عن ابتسامته بعد . وامسك بعامود مكبر الصوت الحديدي .. وضمه الى صدره ... وانساب صوته ..

يا حبيبي تعالى في حضني ..

تعالى بروح السيما ...

.اللحن ، من تلك الالحان الراقصة.

حتى أن الاستاذ عبدالحميد كان قد بدأ في الاهتزاز والتمايل والاندماج ، معبرا عن معاني الكلمات التي كان يرددها ، تعبيرا حركيا .. بالوجه واليدين والجسم كله .. يدمج جيبه بكفتا يديه في دلال .. ثم يعود لضمه وتحسسه في حنان ، ويمتص رغبته معانيا ..

خلاص انا رعلان منك ..

ما دام انت يا روحي لئيمة ...

القاعة انقلبت .. انفجرت .. صفير وصراخ وتهليل وضحكات مجنونة . وكان هناك بعض الذين اشتدت عليهم الوطأة .. يرقصون .. ويرفعون ويضربون الأقربين ، والجميع في ثورتهم الضاحكة الصاخبة ، يتقبلون اللكمات والرفصات .. بترحاب .. اما هو ، فقد بدا واضحا ان هذه الانفجارات المدوية قد اكسبته ثباتا معينا .. يقبل ويدبر ويدور . ويحاول القفز فيجانبه التوفيق .. ويجري بعيدا .. ويسارا ، وينقض بسرعة على مكبر الصوت .

خايفة من ماما قولي لها ..

انك حتروحي لذاكري ..

وينقهقر لاهثا . وكانها الموجة العالية المنطلقة هي التي تمتد به وتطرحه على هذا النحو ، وقد بدا للعيان انه قد فقد السيطرة نهائيا على بطنه . كانت كانها على وشك الانزلاق . والجماهير التي استوت على الاقدام بشتد تدافعها وتكالبها . والاطفال فوق اكتاف الكبار يحتضنون الرؤوس ويتلصون في شيء من الفرح وكثير من الدهشة ، وكان البعض يصرخ ، والبعض يبكي في صمت ، وافراد الفرقة الموسيقية توقفوا عن العزف تماما من زمن واخذوا يتابعون مايحدث من فوق مقاعدهم ، ويتأملون الاستاذ في رعب وقد جحظت عيونهم عندما تعثر في الاسلاك الكهربائية الكثيرة المتشابكة على خشبة المسرح ، التي ارتطم بها . وحاول القيام .. فتعثر ثانية .. واخيرا .. اقلع في خلع قدميه من بين الاسلاك . وعندما وقف كان الصمت والوجوم يخيمان على المكان ..

ثبت في مكانه مقطوع النفس .. مفرج الساقين .. مفتوح الفم .. ناظرا الى لاشيء .. بعينين كانهما سؤالان تقادم عليهما العهد ..

وعلى البعد .. في آخر الدنيا .. كانت هناك دوامة صغيرة .. تدور في صمت .. ولا تني عن الاقتراب والاتساع .. وتقترب .. وتقترب .. وتزداد عمقا .. وتتسع فيها العيون .. آلاف العيون .. والاشياء .. وتتسع .. وتدور . وتقترب .. بالله .. عين حقيقية .. كبيرة . تملأ عليه الوجود .. وتتأمله .. وتتحرك اهدابها الطويلة .. وتلتمع .. كان بحيرة صافية من الدموع تغمرها .. ومن الجفن الاجعد .. العالي .. انزلقت امام محمد .. فوق الحجر الصلب الكبير .. صغيرة .. هابطة .. بطرحة بيضاء .. وجلباب اخضر .. واشارت له بشيء في يدها .. قبل ان تختفي .. واخذ ينحدر .. وينحدر .. ويتجمع الاشياء .. بتمتاها .. وعندما اوشك ان يصيح مناديا ..

اسدلت العين استارها ..